الثقافة الإسلامية

(٣)

حــوارات وإثـــارات

حول المرجعية والفقاهة

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٣ -

هذا البحث طبع في مجلة الفكر الجديد ثم أُدرج في كتاب (الإجتهاد والتقليد) وها نحن نقدمه في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة للقرّاء.



اسم الكتاب: ..... حوارات وإثارات حول المرجعية والفقاهة

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الثانية: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف



تمهيد:

يجري في أوساط المثقفين اليوم حوارات كثيرة حول (المرجعية) و(الحوزة العلمية) و(دور العلماء) في المجتمع.

ولما كان هذا الحوار يتعلق بمسألة ذات حساسية وأهمية خطيرة وذات بعد تاريخي في حياتنا السياسية والاجتماعية، فقد رأيت من المفيد أن أسلّط بعض الضوء على النقاط الأساسية ومحاور البحث الرئيسة في هذا الحوار.

١ـ القيمة الحضارية للمرجعية:

تختلف المرجعية عن أي مؤسسة أخرى من مؤسساتنا السياسية العلمية والاجتماعية بما تملك من رصيد كبير من الاحترام والثقة في نفوس الناس، وأمر هذا الرصيد يعود إلى مجموعة من العوامل التاريخية ساهمت في تكوين هذه الثقة في نفوس الجمهور.

ومن جملة هذه العوامل: التوصيات الكثيرة لأهل

البيت ^ بالارتباط بالفقهاء ومنحهم الثقة وتكريمهم.

ومنها: الدور الذي تنهض به المرجعية في تمثيل الإمام الحجة المنتظر # ، وهذا التمثيل يعطي للمرجعية قيمة حضارية كبيرة في نفوس جماهير المؤمنين، والنصوص الواردة عن أهل البيت ^ تؤكد هذا التمثيل في عصر الغيبة.

ومن جملة هذه العوامل: الظلامات الكبيرة التي تعرضت لها المرجعية في تاريخها السياسي من قبل الأنظمة السياسية التي لم تتمكن من إخضاع الفقهاء لإرادتها وقراراتها السياسية، واستقامة المرجعية على الخط الفقهي الذي ورثه الفقهاء من أئمة البيت ^ .

وهذه النقاط مجتمعة وغيرها تجعل للمرجعية قيمة حضارية كبيرة، وتمنحها موقعاً سياسياً واجتماعياً متميزاً، وثقة كبيرة في نفوس الناس ومحبة في قلوبهم.

وقد استفادت المرجعية من هذه القيمة الحضارية في تاريخها السياسي كثيراً، واستخدمتها في القضايا الكبيرة

التي مرّت بالأمة خلال صراعها السياسي استخداماً جيداً، وعلى درجة عالية من الكفاءة، كان آخرها الثورة الجماهيرية الكبيرة في إيران بقيادة الإمام الخميني & حيث استطاعت المرجعية أن توظف هذه الثقة والعلاقة الروحية والفكرية في حياة الأمة وفي مختلف مواقع الصراع والمواجهة السياسية والعسكرية.

ومن المؤكد إنّ هذه الثقة لم تتكون تاريخياً بصورة عفوية، كما لم يكن أمر المحافظة عليها أمراً يسيراً، فهما قد استنفذا جهداً وعملاً غير يسير من قبل الجماهير والمرجعية على امتداد هذا التاريخ.

المرجعية من مراكز القوّة في المجتمع:

إذن المؤسسة الدينية تعتبر من مراكز القوة الأساسية في مجتمعنا، ومراكز القوة عادة تختزل قوة الأمة وإرادتها. فإن للأمة إرادة وقوة. وهذه الإرادة والقوة قد تجتمعان في مركز وأحد، فيكتسب هذا المركز قوة تساوي قوة الأمة، وإرادة قوية تساوي إرادة الأمة.

وهذه المراكز هي ملك للأمة كلها، لأنّ قوتها وفاعليتها نابعة من الأمة... ودورها هو تمثيل إرادة الأمة وعزمها في القضايا الكبيرة التي لا يتمكن الناس من القيام بها أفراداً وجماعات. وتلك حاجة حقيقية في الأمة.

فلابدّ في الأمة من مراكز قوة تمثل إرادة الأمة ووعيها وقوتها وصرختها واحتجاجها.

والمؤسسة الدينية تمتلك هذا الثقل السياسي والاجتماعي والحركي إلى حد كبير.

والذين يفهمون هذه القيمة الحضارية ويحترمون دورها التاريخي لابد أن يضعوا في حساباتهم أضرار وخسائر التفريط بها في طريقة البحث والنقد لهذا الكيان الديني، الفقهي، السياسي،... دون أن نقصد تجنب (النقد الموجّه)، فإن النقد الموجّه ضرورة حقيقية في تنبيه و توجيه وتثبيت هذا الكيان، ليؤدي دوره بصورة أكثر فعالية، ولكن (النقد) من دون هذا الاعتبار، أو بغير هذا التوجيه قد يؤدي، من حيث لا يقصد الناقد إلى هذه الخسارة في حياة الأمة

ومسيرتها.

ولذلك فإن طائفة من هذه النقود التي يوجهها الكتّاب والمفكّرون الشيعة الذين يفهمون هذا الدور للمرجعية الشيعية وقيمتها التاريخية عن حسن النية يحتاج أحياناً إلى (نقد النقد) أو (توجيه النقد) ليسلم من السلبيات التي قد تترتب عليها من دون قصد، سواء كان النقد من داخل المؤسسة أو من خارجها، لا فرق.

إذن ـ ودون أن نمنع هذا الحوار ـ نقول لابد في كل حوار يجري أن نأخذ بنظر الاعتبار هذه الحقيقة.

فليس من بأس على أحد من المفكّرين والمعنيّين بشؤون الأمة أن يحاور هذه المؤسسة أو تلك من مؤسسات الأمة، وهذا المركز أو ذلك من مراكز القوة، إذا كان يلتزم في الحوار أن لا يفرّط بشيء منه، وأن لا يجرّه الحوار و النقاش إلى التسقيط والإلغاء.

العمق الاجتماعي لأمّتنا:

وقد يختفي هذا العمق الاجتماعي والقيمة الحضارية

للعلماء والمؤسسة الدينية عن أعين الكثيرين، فلا يرون للمؤسسة الدينية هذا النفوذ، وهذا التأثير وهذه المركزية، والموقع الحساس الذي تحدثنا عنه.

وأولئك على جانب من الحق، فإن المجتمع قد يتعرض لمؤثرات سياسية وإعلامية معينة، فتختفي القوة الحقيقية في ذلك المجتمع، وتظهر على السطح حالة وهمية كاذبة، ولكنها تملأ السمع والعين.

وقد تعرّض مجتمعنا في السنوات العجاف لمثل هذه الحالة، فاختفت هذه القوة عن السطح الظاهر للحياة، دون أن تفقد قدرتها ونفوذها في وسط الجمهور، أو على الأقل دون أن تفقد مقومات هذه القوة، وظهرت على السطح قوة سياسية عسكرية تمتلك مفاتيح الإعلام والمال والسلطان، دون أن تملك من دعم الجمهور وتأييده قليلاً أو كثيراً، ولكنها تعتمد على (النظام الأمني القمعي) من جانب، وعلى (التضليل الإعلامي) من جانب آخر.

واختفت في هذه السنوات العجاف(أعراف) الأمة

و(أيامها) و(أخلاقها) وحتى (مصطلحاتها) و(شعاراتها) عن العين وظهرت على السطح أعراف، وأيام، وأخلاق، ومصطلحات، وشعارات لا قِبل للأمة بها. وفي حالة تشبه حالة (المسخ الحضاري). ولكننا نقول تشبه حالة المسخ ولا نقول هي حالة المسخ الحضاري؛ لأنّ العلماء لم يفقدوا في السنوات العجاف هذه قدرتهم ونفوذهم الحقيقي، وإنّما اختفوا عن السطح الظاهر للحياة فقط، وملأ هذا السطح زبد يملأ العين والسمع.

إلاّ إنّ الأحداث الأخيرة في العراق وإيران وأفغانستان ومصر والجزائر... أعدّت العالم الإسلامي للعودة إلى حالته الطبيعية مرة أخرى، ومهّدت الظروف السياسية لتحتل الحالة الإسلامية ـ ومن يرعى هذه الحالة من العلماء العاملين إلى السطح الظاهر من الحياة الاجتماعية السياسية.

وكان أهم هذه الأحداث والهزّات في العالم الإسلامي، على الإطلاق هي الثورة الإسلامية في إيران... فقد كان لهذه الثورة دور كبير في ذهاب الزبد الذي كان يطفو

ويطغى على سطح الحياة، وفي إبراز وتثبيت ما ينفع الناس من الوعي والحركة والأخلاق والأعراف والقوانين، ومن الناس الذين يحملون هذا الوعي والحركة.

وكانت هذه الثورة بمثابة زلزال قلب المجتمع، فظهر على السطح ما كان خافياً وكامناً في العمق من قبل، واختفى عن السطح تماماً ما كان يملأ العين والسمع من قبل، من الزبد الذي لا يحمل شيئاً مما ينفع الناس.

وهذه خاصّية الهزّات القوية، وفي هذه الهزة العميقة ظهر علماء الدين وبرز دورهم القيادي الفاعل في الأحداث السياسية، وفي مواجهة الاستكبار والكفر، وكان للإمام الراحل الخميني & الدور القيادي البارز في هذه الحركة.

ولا ينقص من قيمة هذا الدور وهذا الحجم إطلاقاً بعض الأخطاء السياسية والاجتماعية التي ارتكبها قادة الثورة ورجالها من العلماء وغيرهم.

فلابدّ في كل ثورة من الأخطاء... وكل ثورة تمر عبر

بحر من الفتن، ولا يمكن أن تسلم الثورة عبر هذه الفتن من الأخطاء... وليس المهم حدوث هذه الأخطاء في وقتها، وإنّما المهم هو جرد الثورة بصورة مستمرة، وتصحيح مسيرها، وتصحيح الأخطاء التي تقع فيها، وتثبيت المكاسب الحضارية والسياسية التي حققتها الثورة.

ونعود مرة أخرى إلى القيمة الحضارية والسياسية للفقهاء وللمرجعية الدينية في امتنا، فنقول: في هذه الثورة تبادلت(القيادة) و(القاعدة) الثقة، وشعر الناس بأن قيادتهم تشاركهم في همومهم وتتحسس آلامهم، حتى لو كانت تعجز عن إزالتها أو تخفيفها، ووقفت الأمة إلى جانب قيادتها في الأزمات الشديدة، وفي أقصى أيام الحصار الاقتصادي والسياسي والإعلامي.

وأحسّ الناس إنّ قيادتهم تحترم إرادتهم وتراثهم ومواريثهم الحضارية، و كان الناس قد ألفوا منذ زمن طويل هجر القيادة وتنكّرها لإرادتهم ومواريثهم الحضارية وتراثهم.

ونوجز القول ونقول: إنّ هذه الثورة أعادت الناس إلى أنفسهم، بعد أن كانت الأنظمة الحاكمة والمرتبطة بعجلة الغرب والشرق قد سلختهم عن أنفسهم.

وتلك قيمة حضارية كبيرة. ومن خلال هذا التصور نستطيع أن نفهم ونبحث عن مركز العالم الديني وموقعه السياسي والاجتماعي في الأمة.

الموقع التوجيهي والقيادي للعالم الديني في المجتمع:

يمارس العالم الديني في مجتمعنا دوراً توجيهياً وقيادياً خطيراً.

وهذا الموقع يتطلب حضوراً فاعلاً ومؤثراً في وسط الأمة. فلا يستطيع العلماء أن يمارسوا مثل هذا الدور الخطير في الأمة. إذا كانوا منعزلين عن الأمة وعن حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعن حركتها وطموحاتها وآمالها وآلامها.

وتبادلهم الأمة أغلى ما عندها، وأغلى ما عند الأمة هي (الثقة) و (الطاعة). ولولا إنّ الأمة تمنح (الثقة) و(الطاعة)

للفقهاء لم يكن بإمكان الفقهاء أن يمارسوا دوراً فاعلاً خلال هذا الموقع الخطير.

مصادر الثقة:

ولم تكتسب المؤسسة الدينية هذه الثقة وبهذه الدرجة من الأمة من دون سبب، فإن الأمة **لا** تمنح الثقة إلاّ ضمن حساب دقيق.

فقد يكتسب أحد ثقة جماعة من الناس بصورة أو أخرى، من دون سبب كاف، ولكن من غير الممكن أنّ شخصاً أو مؤسسة تكتسب ثقة أمّة من الناس بصورة اعتباطية من غير سبب كاف وبصورة مستمرة، رغم كل العوامل السلبية.

وعندما نبحث عن الأسباب التي دعت الناس إلى أن يضعوا ثقتهم في (العلماء) بهذه الصورة نلتقي بسببين أساسيين:

السبب الأول: هو توجيه أهل البيت ^ الأمة باحترام

العلماء ووضع الثقة فيهم، والرجوع إليهم، والأخذ بتوجيهاتهم، والإحتفاف بهم، والتزامهم، وتبنّيهم.

والسبب الثاني: هو تاريخ المؤسسة الدينية، وهذا التاريخ يضرب بجذوره في عمق الماضي وتستحضره ذاكرة الأمة.

والذين يستحضرون هذا التاريخ يعرفون جيداً إنّ المؤسسة الدينية سلمت خلال هذا التاريخ الطويل من الغيبة الكبرى إلى اليوم من الانحراف والشطط والانتهازية والتلاعب، واستثمار ثقة الناس في المصالح الشخصية.

وهذا التاريخ حاضر في ذاكرة الأمة ضمن أرقام وقضايا واقعية.

وليس معنى ذلك أن التاريخ لم يشهد عضواً في هذه المؤسسة شطّ أو انحرف. فقد حصل هذا الأمر بالتأكيد، والمناقشة فيه مناقشة في البديهيات.

ولكن الأمر الذي حدث إلى جنب ذلك، إنّ كل عنصر شطّ أو انحرف من داخل المؤسسة الدينية عزلته هذه

المؤسسة عن نفسها أو عزله الناس بأنفسهم عن المؤسسة.

ولعل هذا الوعي المبكّر لتشخيص حالات الانحراف في أعضاء المؤسسة الدينية، والموقف العملي السريع تجاه هذه العناصر وعزلها عن هذه المؤسسة وتجريدها عن صلاحيتها وأدوارها هو من جملة أسباب حصانة المرجعية والحوزة العلمية.

ويدخل في هذا الباب النماذج المعاصرة التي يعرفها الناس في حياتهم من العلماء العاملين الموجودين في كل زمان وفي كل قطر تقريبا، ممن عرفهم الناس عن كثب وعرفوا فيهم الصلاح والتقوى والجدية والإخلاص ونكران الذات، والزهد والإعراض عن الدنيا، والاهتمام بشؤون الناس، والقوة والجرأة والثبات والصمود.

وهؤلاء العلماء لهم حضور فاعل بطبيعة الحال في حياة الناس، يعرفهم الناس ويلتقونهم ويتعاملون معهم، ويأخذون منهم ويمنحونهم ثقتهم. ويدخلون الحياة السياسية والاجتماعية من أوسع أبوابها. ومع ذلك لا يسجّل

لهم التاريخ سقوطاً عند هذه المزالق، كما يسجّل لغيرهم، ولا يفقدون رغم كل النقد والتجريح، ثقة الناس واعتمادهم، ويبقى هؤلاء عناصر صلبة في تيار العمل السياسي والاجتماعي والحركي، لا يمكن ترويضهم بإرهاب ولا إغراء.

وعندما يتلاقى هذان العنصران، ثقة الجمهور بقيادته، وصلابة عناصر القيادة واستقامتها، تكتسب المؤسسة الدينية قيمة كبرى، وتعتبر مصدر خطر كبير بالنسبة للمؤسسات الإستكبارية التي تطمع في الوصول إلى مآرب سياسية واقتصادية في العالم الإسلامي.

وأقول مرة أخرى: ليس معنى ذلك كله إنّ المؤسسات الدينية تخلو من عناصر ضعيفة تستغل ثقة الناس استغلالاً شخصياً، وتستفيد من احترام الناس وثقتهم في شؤون شخصية.

فإن وجود هذه العناصر ضمن المؤسسة الدينية حق وواقع طبيعي في نفس الوقت، ووجود هذه القيمة الكبيرة

للعالم الديني وللمؤسسة الدينية عموماً أيضاً صحيح وواقع، ولا سبيل للمناقشة في هذه أو تلك.

ومن الخطأ التفريط في هذا الموقع الاجتماعي بما يحمل من قوة وبما يكسب من ثقة الناس، كما إنّ من الخطأ تجنب الحوار والنقد الموضوعي البنّاء لهذه المؤسسة.

كيف نتعامل مع المؤسسة الدينية؟:

أمامنا ثلاثة أنماط من التعامل مع هذه المؤسسة:

الأول: التعامل من خلال الثقة المطلقة لكل شرائح المؤسسة الدينية.

والثاني: النقد الذي لا يتجنب صاحبه فيه حالة التسقيط والإلغاء.

والثالث: النقد الموجّه المسؤول الذي يطلب فيه صاحبه نقاط الضعف ويوضحها للتسديد والنصح وليس للتسقيط والإلغاء.

والفرق بين الأسلوب الثاني والثالث واضح لا يخفى على الناقد ولا على القارئ.

فإن النمط الثاني من التعامل نمط غير مسؤول من النقد، بينما النمط الثالث نمط مسؤول من النقد.

والناقد غير المسؤول لا يهمه إلاّ تثبيت نقاط الضعف على هذه المؤسسة مهما كان الثمن، ومهما آل إليه الأمر، بينما الناقد الأخير يهمه النصح والتسديد، ومعالجة نقاط الضعف، فهو يحرص على الكيان من حيث الأساس، وهذا هو النقد المسؤول والموجّه في مقابل النقد غير المسؤول وغير الموجّه.

ولست اشك أنّ المؤسسة الدينية بحاجة إلى كثير من النقد، كما لست أشك أنّ النقد غير المسؤول وغير الموجّه ضرره أكثر من نفعه، بل لا يأتي بغير الضرر، لأنّ النقد اللاّمسؤول عمل تخريبي في مركز من أهم مراكز القوة في المجتمع يؤدي إلى تشكيك الناس وسلب ثقتهم عن هذا المركز، دون استبداله بمثله فضلا عن استبداله بخير منه.

وهذا الأسلوب من النقد نابع من أحد أمرين:

أما عدم وعي لمراكز القوة في المجتمع وضرورتها. أو اللامبالاة وعدم الاهتمام بوجود هذه المراكز.

والثاني أسوأ من الأول... وهو الرائج فعلاً في بعض الأوساط.

٢ـ دور العلماء في إحباط المؤامرات الثلاثة على العالم الإسلامي:

لكي نعرف قيمة الدور الذي نهض به العلماء في تاريخنا السياسي والفكري المعاصر، لابد أن نشير إشارة سريعة إلى المؤامرات الثلاث الكبرى التي حلّت بالإسلام والمسلمين في تاريخنا الفكري والسياسي المعاصر والقريب منه... عندئذ نستطيع أن نقيّم الدور الذي نهض به العلماء في هذه المرحلة من التاريخ، ونحدّد أسلوب النقد الذي نسمح به لأنفسنا في نقد نقاط الضعف الموجودة في هذه المؤسسة.

وهذه المؤامرات هي:

أ- التحريف

ب- التغريب.

جـ- الاستبداد السياسي.

أ ـ التحريف:

حركة التحريف المعاصرة حركة واسعة وهي في الظاهر فكرية عقائدية، إلاّ إنّها في خلفياتها سياسية.

والأهداف التي يحققها التحريف في المجتمع الإسلامي هي:

أـ النيل من نقاوة الفكر الإسلامي وأصالته.

ب ـ تشويش الساحة الإسلامية بإثارة المشاكل الفكرية فيها وخلق جو من الاضطرابات والقلق الفكري في هذه الساحة.

ج ـ إيجاد أقليات عقائدية وفكرية في المجتمع الإسلامي خاصة، تنفذ من خلالها الأنظمة التي تحكم الأمة بالاستبداد والإرهاب، وتتخذ منها أدوات لإثارة المشاكل والمتاعب في صفوف الأمة، وبالتالي إحكام القبضة

السياسية على الأمة.

ولو استقرأنا التاريخ الإسلامي القريب والبعيد وجدنا إنّ هذه الأقليات التي أوجدتها الانحرافات الفكرية خلقت كثيراً من المشاكل في حياة الأمة، كالفرق المنحرفة من الصوفية والقاديانية والشيخية، والغلاة والبابية والنواصب والأغاخانية وغيرهم.

وقد كان للعلماء دور بارز في مكافحة هذه الانحرافات الفكرية والتقليل من حجمها وخسائرها.

فإن بعض هذه الفرق كان يمسّ أصول الألوهية كالغلاة، وبعضها كان يمسّ النبوة والمعاد والعدل، ومنها ما كان يمسّ شريعة الله وحدوده من الحلال والحرام.

ب ـ التغريب:

وهو أشرس هجوم قام به الغرب تجاه الشرق.

وقد سبق هذا الهجوم الدراسات الإستشراقية التي مهدت لدخول الغرب للعالم الإسلامي في الشرق.

وكانت الغاية من هذا الهجوم هو مصادرة القيم

الإسلامية وتصدير الأفكار والأعراف الغربية إلى العالم الإسلامي.

فمتى بدأ هذا الهجوم؟ وكيف كانت بدايته؟ والغاية منه؟

في عام ١٧٩٨ م غزى نابليون مصر وهذه السنة بالذات تعتبر بداية محنة طويلة للشرق الإسلامي.

ولم يواجه نابليون في هذا الغزو مواجهة عسكرية تذكر، ولكنه واجه مقاومة شديدة من قبل جماهير الأمة التي كانت تتمتع بحصانة حضارية قوية ضد غزو الكافر لبلاد المسلمين. وقد شلّت هذه المقاومة حركة نابليون العسكرية.

فإن الإسلام يمنح المسلم مناعة كاملة ضد الكفر وأخلاقه وأفكاره وأحكامه وعاداته ونفوذه، مهما يكن أمر هذا النفوذ، سياسياً كان، أم عسكرياً أم اقتصادياً، أم حضارياً. وهذه الحصانة والبراءة التي يتمتع بها الإنسان المسلم تحميه من غزو الكفار.

وقد اصطدم نابليون في مصر بهذه العقبة أشدّ وأقوى من المواجهة العسكرية التي واجهها في هذا الغزو.

فبدأ نابليون يفكّر في تغريب الشرق الإسلامي ويخطط لانتزاع المناعة الإسلامية من نفوس الشرقيين وتطبيعهم بمعاشرة الغربيين وترويضهم بقبول أخلاقهم وعاداتهم وقيمهم وقوانينهم ونفوذهم السياسي والعسكري والفكري والاقتصادي.

لقد بدأ نابليون يفكر في مخطط كامل للغزو الحضاري إلى جانب الغزو العسكري.

وقد ورث الإنكليز بعد ذلك نظرية الغزو الحضاري من سلفهم الفرنسيين كما ورثها الأمريكان اليوم من الإنكليزهذه المهمة.

ومهما يكن من أمر فإن الغربيين بدأوا حركة تخريب حضارية شرسة في مصادرة القيم والأحكام الإسلامية واستبدالها بالقيم والأحكام المادية في العالم الإسلامي.

وبدأوا بمخطط واسع، وشرس، ومدروس، بصورة

علميــة دقيقــة، لعــزل المســلمين عــن ديــنهم، واخلاقهــم، وتــراثهم، وفقههــم، وأعــرافهم، وتقاليــدهم، وأصــولهم، وفروعهم، واستبدال ذلك كله بمعطيات الثقافة الماديـة فـي الغرب.

كما عملوا عملاً واسعاً في اسـتبدال مفهـوم (الإسـلامية) الذي كان يجمع هـذه الأمـة العريضـة الكبيـرة مـن مشـارق الأرض ومغاربها بـ (الوطنية) و(القومية)، واستبدال المذهبيـة الفقهيــة والفكريــة المنقحــة بــين المســلمين إلــى الطائفيــة السياسية المنغلقة.

وصادف ذلك فترة ركود وضعف وخمول شديد للعـالم فـي بنيتـه السياسـية والاقتصـادية والثقافيـة والعسـكرية، ممّـا سهّل للغرب تنفيذ هذا المخطط التخريبي الواسع في العـالم الإسلامي.

وأنـاط الغـرب تنفيـذ هـذا المخطـط الواسـع والصـعب بفئتين معروفين من نواطير الغرب في الشرق.

الفئـة الأولـى: المفكـرون والمنظـرون والكتـاب الـذين

حملوا الينا الثقافة المادية من الغرب، مذهولين، مأخوذين ببريقها، وكتبوا ودافعوا عنها ونظّروا لها.

من أمثال رفعت الطهطاوي، وطه حسين، وشبلي شميل، وسلامة موسى، وقاسم أمين، وسليم النقاش وغيرهم (من مصر) وحسن نقي زاده، وكسروي، وجمال زاده (من إيران)، وضياء كوك آلب (من تركيا)، وسير (سيد) أحمد خان (من شبه جزيرة الهند)، وبطرس البستاني (من لبنان) وعلي الوردي (من العراق)، وغيرهم وهم كثيرون.

الفئة الثانية: من نواطير الغرب في الشرق، هم الحكام الذين فرضهم الغرب في بلادنا وحماهم، ليحموا الثقافة الغربية ويكافحوا الثقافة الإسلامية، ابتداءً من المصطلحات الثقافية، والنشيد، والأدب، والفن، وأسماء الشوارع، والمعارض، والصحافة، والإذاعة والتلفزيون إلى استبدال أحكام الله تعالى وحدوده في الحلال والحرام بالقوانين والأنظمة (العلمانية!!) في الغرب كالحجاب، والقضاء، والقصاص، والأحوال الشخصية، والأحوال المدنية وسائر

القوانين والأنظمة.

وقد قامت هذه الفئة من نواطير الغرب في الشرق بدور واسع في ربط العالم الإسلامي بعجلة الغرب في الثقافة والفكر، وفي الاقتصاد والتجارة، وفي السياسة والإعلام، وفي التسليح العسكري.. من امثال كمال أتاتورك (في تركيا) ورضا بهلوي وابنه (في إيران)، وأمان الله خان (في أفغانستان)، وحكام حزب البعث (في العراق) و.. (في مصر)، وبورقيبة وخليفته الذي انتزع منه الحكم قسراً (في تونس) وغيرهم وهم كثيرون.

إسباغ الطابع المادي على حياة الإنسان.

وكان من أخطر ما عمله الغرب هو إسباغ الطابع المادي (اللاّرباني) على حياة الإنسان.

وعزل الإيمان بالله عن حياة الإنسان المسلم.

وحشر الإيمان بالله في زوايا ومساحات محدودة من حياته في المساجد وفي بعض الطقوس والشعائر الدينية، كما عزل الغرب الإيمان بالله من حياته العملية وحشره في

الكنيسة وفي بضع ساعات من أيام الآحاد فقط. .

بعكس الاتجاه الإسلامي الذي يحاول أن يربط كل حياة الإنسان بالإيمان بالله وذكره. ففي منهج التربية الإسلامية يرتبط الإنسان في كل حال بذكر الله، ويستقيم في كل حالة على نهج الله، ويراقب حضور الله تعالى ومراقبته له في كل أحواله، حتى في غير العبادات وممارسة الشعائر الدينية. . يقول تعالى: (صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ)، وهذه الصبغة الربانية هي الطابع العام لحياة الإنسان المسلم.

وهو بعكس ما يتجه إليه الغرب تماما بالنسبة إلى الإيمان بالله، فإن الغرب لم يرفض بصورة رسمية مسألة الإيمان، ولكنه عزل الإيمان عن حياته تماماً، إلاّ في حالات نادرة و ضمن مساحات محدودة جداً.

ومن مظاهر إسباغ الحالة المادية (اللاّربانية) على حياة الإنسان، تحويل الإنسان من محور اُلوهية الله تعالى إلى محور اُلوهية الإنسان، واستبدال اُلوهية الله بالإنسان في حق

التشريع والسيادة.

ففي الإسلام يرجّع الإنسان كلاً من هذين الأمرين (التشريع والسيادة) إلى الله تعالى، ولا يحق للإنسان أن يشرّع، فإن التشريع خاص بالله تعالى، ولا يحق للإنسان أن يتولى سلطانا أو ولاية في شأن من شؤون الناس إلا فيما يأذن به الله تعالى، وفي حدود ما أذن به الله تعالى، فإن التشريع والولاية لله لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

وقد حوّل الغرب حق التشريع وحق السيادة من محور (الله) تعالى إلى محور الإنسان، وجعل من الإنسان إلهاً يشرّع ويمنع حق السيادة والولاية في مقابل الله تعالى.

وهذه هي النظرية المعروفة بـ (الديمقراطية) التي يتبناها الغرب وروّج لها، وصدّرها إلى الشرق الإسلامي فيما بعد.

وبموجب هذه النظرية يحق للإنسان أن يشرّع لحياته ما يشاء من حكم وقانون، ويحق له أن يمنح الولاية والسيادة لمن يشاء من الناس بغير حدود.

والخلاصة الأخيرة التي نستطيع أن نوجز بها هذه

النظرية هي: أنّ الديمقراطية تقرر حاكمية الإنسان في مقابل حاكمية الله تعالى، وتعكس تضايق الإنسان من حاكمية الله، وتتوجّه إلى استبدال حاكمية الله بحاكمية الإنسان. يقول تعالى: **{وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ}**[1].

والإسلام يقرّر في مقابل الديمقراطية مبدأ الشورى وهو مبدأ ينسجم تماماً مع أصل التوحيد، يقرر مشاركة الناس بصورة حقيقية في تقرير مصيرهم، دون أن يزاحم حقاً لله تعالى في التشريع والسيادة.

ومن الخطأ ما يرتكبه بعض الكتّاب المعاصرين في الخلط بين مبدأ (الشورى) و(الديمقراطية). . وهذا هو البعد الأول للثقافة الغربية.

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

التحلل والإباحية:

وهو البعد الثاني من أبعاد الحضارة الغربية، وهو من أهم مفردات التغريب التي صدّرها الغرب للشرق، وتتلخص هذه المفردة في دعوة الإنسان إلى التحلل من القيود والقيم، وفسح المجال للإنسان ليأخذ حظه من الشهوات واللّذات من دون قيود ولا حدود. وقد دخلت هذه الإباحية وهذا التحلل بلادنا في الشرق تحت شعائر (الحرية) كما دخل معها العدوان على حق الله في التشريع والسيادة تحت عنوان (الديمقراطية).

ونظّر الغرب للتحلّل والإباحية بنظريات علمية دخلت بلادنا مع الحرية والإباحية جنباً إلى جنب، كالداروينية، والفرويدية، وأمثال ذلك من النظريات التي تؤكد عمق الحالة الحيوانية وتأصيل الجانب الحيواني لدى الإنسان وأصالة الهوى والشهوة والغريزة في شخصيته. وتعطي الغريزة الجنسية الدور الأول والأكبر في حياة الإنسان، بعكس الاتجاه القرآني الذي يعطي للجانب الروحي

والإنساني الـدور الأول والأكبـر فـي حيـاة الإنسـان، ويعتبـر الجانب الحيواني مركّباً للشطر الإنساني.

كمـا إن الإسـلام يخـالف تمامـاً طـرح الحريـة مفهومـاً وشـعاراً وقيمـة فـي حيـاة الإنسـان، فـإن الإنسـان مـن حيـث المبدأ عبد لله تعالى، وشـأن العبـد الطاعـة والالتـزام والتعبـد والتقوى وكفّ النفس والاستعصام والورع.

وهذه المفاهيم التي يطرحها الإسلام فـي مقابـل التحلّـل والإباحية تنبع من أصل (العبوديـة). كمـا أنّ المفـاهيم التـي يطرحها الغرب تنبع من أصل (الحرية).

وهذان أصلان مختلفان لا يجتمعان، ولا تجتمـع النتـائج الحاصلة منهما، وهما يعتبران خطّان فكريان وحضاريان في اتجاهين مختلفين ومتعاكسين.

ونحن نتهم الماسونية في تصدير هذه الكلمة إلى العـالم الإسلامي.

والله تعالى وحـده يعلـم الخسـائر والأضـرار الحضـارية، والضلال، والعمى، والطيش الـذي لحق بهـذه الأمـة نتيجـة

شيوع وانتشار هذه الكلمة.

وقد أدرك علماؤنا بصورة مبكرة خطر هذا الشعار، وحذّروا الناس منه واستخدموا كل الوسائل الممكنة لصدّ تيارها الجارف.

وكانوا مدركين بصورة واضحة للنتائج والآثار السيئة التي تحملها هذه الكلمة، وللمدلولات العقائدية التي تدل عليها هذه الكلمة.

ونحن الآن بعد قرن كامل من الصراع بين هذين الخطين نقرأ بإكبار واعتزاز في التاريخ هذا الوعي المبكّر لعلماء الإسلام لمداليل هذه الكلمة وآثارها في حياة المسلمين فيملكنا الإعجاب والاعتزاز بهذا الوعي والتحذير المبكر.

يقول الملاّ علي الكني للملك ناصر الدين القاجار الإيراني في رسالة يبعثها إليه يحذره فيه من حركة التغريب التي بدأت تزحف إلى العالم الإسلامي: (إنّ كلمة الحرية القبيحة تصادر كل ما يقوله الأنبياء تحت عنوان العبودية

والتقوى).

ويعبّـر الشـيخ فضـل الله النـوري عـن هـذه الكلمـة بــ: الكلمة المشؤومة.

استبدال الولاء للّه ولرسوله والمؤمنين بالولاء للقوم والوطن:

كانـت عمليـة (تبـديل الـولاء) واحـدة مـن أهـم نقـاط المـؤامرة فـي عمليـة التغريـب، فلـيس فـي الغـرب ولاء لله وللرسول وللمـؤمنين، وإنّمـا الـولاء للـوطن والقـوم، ولـيس فيمـا بـين المسـلمين ولاء للقـوم والـوطن، ولكـن الـولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

ومع استقرار هذا الولاء فـي نفـوس المسـلمين لا يمكـن النفوذ إلى كيانهم السياسـي وبسـط نفـوذهم وسـلطانهم فـي بلاد المسلمين.

ولهـذا السـبب خطّـط الغـرب لعمليـة تبـديل الـولاء، واسـتحداث الـولاءات القوميـة، والوطنيـة وأفقـد العـالم الإسلامي الحصانة التي كان يتمتع بهـا مـن ناحيـة الـولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

وسخّرت الأنظمة الحاكمة في بلاد المسلمين كل إمكاناتها الإعلامية والتربوية لإلغاء الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين. وتثبيت الولاء للقوم والوطن مكان الولاء لله.

وعمّقت هذه الأنظمة فكرة الولاء القومي والوطني بكل إمكاناتها.

فعمّمت الثقافة الوطنية والقومية على كل الجهاز التربوي والتعليمي في بلاد المسلمين، ونظّمت على هذا الأساس البرامج الفنية في الإعلام من خلال الأغاني والأناشيد، واستخرجت التاريخ والتراث القومي والوطني الذي أكل الزمان عليه وشرب، من زوايا الخمول والنسيان وسلطت عليه الأضواء، وسمّت به الشوارع والمدارس والمحلات والقاعات. وعمدت إلى إخفاء معالم التاريخ الإسلامي وإبراز وتلميع الأساطير القومية والوطنية البائدة... إلى غير ذلك من الأعمال التي قامت بها هذه الأنظمة في عملية (استبدال الولاء).

وكلّفت هذه العملية كثيرا من الجهود والأموال، ليس

فقط في إبراز مجاهيل التاريخ وأساطير التراث القومي والوطني باسم الفنون والفولكلور، وإنّما في تخريب الولاء الذي كان يضمره المسلمون لله ولرسوله وللمؤمنين، وفي نسيان وإلغاء التاريخ والتراث الإسلامي.

وقد جنى الغرب ثمرة هذا الولاء الجديد في الشرق الإسلامي كما كان يتمنى ويريد. ودعم بهذا المشروع الجديد في استبدال الولاء مشاريعه السياسية في تمزيق العالم الإسلامي وتحويله إلى أجزاء منفصلة عن بعض، وأثار الخلافات والمشاكل القومية والوطنية فيما بينها، وفرض سلطانه ونفوذه عليها من خلال هذه التجزئة وهذه الإثارات.

يقول برنارد لويس في محاضراته التي ألقاها بجامعة (انديانا) في الولايات المتحدة تحت عنوان الغرب والشرق الأوسط:

إنّ تأثير التغريب في الشرق كان هو الانحلال السياسي الذي أدّى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها، فقد هدمت

الخلافة العثمانية، ورغم ضعف الخلافة كان شطر كبير من المسلمين يضعون ولائهم السياسي في خلفاء آل عثمان، وخلفهم الملوك والرؤساء الذين لم يكتسبوا ولاء الرعية، هذا الولاء الذي كان يجعل السلطان لا يحتاج إلى ضغط وعنف وإرهاب... فدخلت الدكتاتورية والإرهاب.

وبعد أن كان كل مواطن عضواً في دولة إسلامية كبيرة لها ألف سنة من التراث والتاريخ وجد الناس أنفسهم منتمين إلى سلسلة من الأنظمة الحديثة والوحدات السياسية المفتعلة (الوطنية والقومية) والتي تحاول إيجاد عمق لها في ضمير الأمة، وصاحب ذلك نسف النظام القديم وتدمير الدولة الإسلامية العريقة في نفوس الناس، وحلّت محلّها ولاءات جديدة للقوم والوطن مستوردة من الغرب، غريبة عن مشاعر المسلمين.

هذه خلاصة عن التغريب وما استتبع التغريب من تخريب ثقافي وحضاري واسع في بلاد المسلمين.

الاستشراق والتغريب:

وقد سبقت عملية التغريب دراسات استشراقية واسعة قام بها علماء من الغرب وقد مكّنتهم هذه الدراسات من معرفة التاريخ والتراث الإسلامي، ومكّنتهم من معرفة بقاع العالم الإسلامي وما كان فيها من عادات وتقاليد، وما فيها من نقاط الضعف والقوة.

فكانت هذه الدراسات الإستشراقية هي الطلائع الأولى لعمليات (التغريب) التي قام بها الغرب بعد ذلك على أيدي حكام ومفكّرين من العالم الإسلامي.

ولا نحتاج إلى كثير من التأمل لندرك أنّ (الاستشراق) و(التغريب) وجهان للمحاولات التي بذلها الغرب منذ عصر نابليون إلى اليوم لبسط نفوذه وسلطانه في الشرق.

ومهما يكن من الأمر فقد كان للتغريب أثر تخريبي كبير في ثقافة الأمة وتاريخها وحضارتها وحصانتها.

وقد أدرك العلماء في وقت مبكر خطر هذه الموجة التي كانت تزحف بصورة منتظمة إلى العالم الإسلامي،

وأنذروا المسلمين بأخطار هذه الموجة وآثارها التخريبية في الحضارة والسياسة، وأنّ الاستسلام لهذه الموجة من الركون إلى الذين كفروا والذي حرّمه الله تعالى وأوعد عليه بالنار، ومن سبيل الكافر على المؤمن.

وقد نفى الله تعالى أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل أو سلطان ونفوذ في أي شان من شؤون الحياة.

غير أنّ الدعوة إلى التغريب كانت تتم ضمن إمكانات هائلة تملكها الأنظمة ودعم واسع من الغرب، ولم تكن الدعوة المناهضة لها التي قام بها العلماء في العالم الإسلامي تملك الإمكانات المكافئة للدعوة الأولى في هذا الصراع الرهيب.

وتمكّن الحكّام في فترة من التاريخ من عزل العلماء عن الساحة السياسية والإعلامية واستطاعوا أن يفسّروا ويوجّهوا حركة علماء الإسلام في مناهضة التغريب بمعاداة الحداثة والتخوف من التجديد.

وكان الخلط بين التغريب من جانب والحداثة

والتجديد من جانب آخر لعبة إعلامية نجح فيها دعاة التغريب حكاماً ومفكرين، استطاعوا فيها أن يركّزوا في أذهان الناس أن الموقف السلبي لعلماء الدين من التغريب ينبع من تخوفهم من موجة الحداثة. إلاّ أنّ نجاح الحكام والكّتاب التابعين لهم في الدعوة إلى التغريب لم يطل. فقد كفتنا الفضائح السياسية والأخلاقية والمآسي الحضارية في الغرب شر هذه الموجة، واخذ الناس يعودون من جديد إلى قيمهم وجذورهم الحضارية ولله الحمد.

جـ ـ الاستبداد السياسي:

وهذه هي المؤامرة الثالثة. ولئن خفّت اليوم موجة المؤامرة الأولى والثانية فإن هذه المؤامرة لا تزال قائمة بقوة، بكل ثقلها.

وخلاصة هذه المؤامرة أنّ الاستعمار الإنكليزي والفرنسي، وبعدها الاستعمار الأمريكي بدأ يخطط بعد الحرب العالمية الثانية لأسلوب جديد من النفوذ السياسي بدل أسلوب الاحتلال العسكري.

فقد واجه الاحتلال العسكري أمواجاً عارمة من الغضب قادها العلماء كما حدث ذلك في العراق والجزائر، ولم يقو الاستعمار على مقاومتها والتصدي لها.

فقد قاوم علماء العراق من مثل الشيخ محمد تقي الشيرازي والسيد محمد سعيد الحبوبي وشيخ الشريعة الاحتلال الإنكليزي مرتين في سنة ١٩١٢م وفي سنة ١٩٢٠م مما اضطر الإنكليز فيما بعد أن يستبدلوا طريقة بسط نفوذهم في العراق من الاحتلال العسكري إلى أسلوب جديد هو (مشروع الاستعمار الجديد).

مشروع الاستعمار الجديد:

وهذه نظرية سياسية جديدة للغرب في بسط نفوذه في الشرق، وتعتمد هذه النظرية مجموعة من الأسس الاقتصادية والسياسية مثل السيطرة على الأسواق، وفرض نظام العامل الواحد في الإنتاج والتصدير على البلاد المستعمرة، وربط هذه البلاد بأقطاب الاستعمار من خلال احتياجات السوق الكثيرة، وإغراق هذه السوق ببضائع

الغرب في الوقت الذي لا يسمح الغرب للبلاد المصدرة للنفط مثلا أن تتجاوز في اقتصادها عامل تصدير النفط، والاتفاقيات والتحالفات والمواثيق التي تربط دول العالم الإسلامي بعجلة الغرب الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

وبهذه الصورة ترتبط البلاد بالاستعمار من خلال العامل الاقتصادي. وهكذا تمكّن الغرب أن يبسط نفوذه في البلاد من خلال السيطرة على الأسواق التجارية.

ومن أسس هذه النظرية الاستعمارية الجديدة التخطيط لبسط نفوذ الدول الكبرى في العالم الثالث من خلال الأنظمة الحاكمة فيه، وربط هذه الأنظمة بعجلتها، وتمكينها من رقاب الناس ودمائهم وأعراضهم، وأموالهم، وإطلاق أيديهم في حياة الناس بصورة رهيبة.

وفي ضوء هذه النظرية الاستعمارية الجديدة ولدت في العالم الثالث أنظمة سياسية ذات طابع إرهابي، تحكم بالاستبداد السياسي، وتحكم قبضتها بالإرهاب، وتمارس التضليل السياسي والإفساد الحضاري والإرهاب على نطاق

واسع.

وتتبنى الدول الكبرى هذه الأنظمة بشكل واسع، تدعمها وتحتضنها، كما تهيئ لها ظروف الوصول إلى الحكم أحياناً.

فنظام (أسرة بهلوي) في إيران ونظام (حزب البعث) في العراق، ونظام (جمال عبد الناصر) في مصر، ونظام (أبو رقيبة) في تونس، والأنظمة العلمانية الأتاتوركية المتعاقبة على الحكم في تركيا، من ابرز هذه النماذج، كما إنّ النظام الشيوعي في أفغانستان كان امتداداً لنفس النظرية، ولكن من طرف الاتحاد السوفيتي (سابقا) وليس من ناحية الغرب[1].

ولما كانت هذه الأنظمة تحكم بالإرهاب والاستبداد، ولم تكن نابعة من وسط الجمهور وإرادته، ولم يكن لها

---

(١) كتبت هذه الكراسة في عهد سيطرة الاتحاد السوفيتي على أفغانستان.

جذور وعمق في الأمة... فإنها تضطر لكي تحتفظ بنفوذها وسلطانها إلى أن تكسب دعم الدول الكبرى وتحافظ عليه، ولكي تكتسب دعم هذه الدول أو تحافظ عليه تضطر لأن تنفذ إرادة هذه الدول بشكل واسع. فهي تأتي إلى الحكم على مركب النفوذ الأجنبي وتضطر أن تبقى وفية لهذا المركب الأخير.

إذن هذه الأنظمة تحتاج في وصولها إلى الحكم وفي بقائها في الحكم إلى نفوذ الدول الكبرى، فهي تحتاج إلى دعم الدول الكبرى المادي، كالمنح المالية والسلف، وتحتاج إلى دعمها السياسي والعسكري في الصراعات السياسية، وتحتاج إلى دعمها الأمني لكشف المؤامرات وإخماد الثورات والانتفاضات الداخلية، وتحتاج إلى دعمها الإعلامي في الأوساط السياسية.

ومن العجب أنّ هذا الدعم يؤدي أحيانا إلى المزيد من اعتماد هذه الأنظمة على الدول الكبرى، وارتباطها بها في السلف والقروض الربوية الكبيرة التي تربط مصير هذه

الأنظمة من الناحية الاقتصادية بعجلة الأنظمة الكبرى.

كما أنّ الدول الكبرى تحتاج في مدّ نفوذها إلى العالم الثالث وفي استمرار نفوذها إلى هذه الأنظمة.

وهذه هي أساس العلاقة العضوية والزواج المشؤوم القائم بين هذه الأنظمة والدول الاستعمارية الكبرى.

وضمن هذه الآلية تمدّ هذه الدول نفوذها إلى العالم الإسلامي، وتستخدم هذه الأنظمة في المهام الصعبة كما تستخدم العتلة في رفع الأثقال الكبيرة بسهولة وراحة.

فلم يكن بإمكان (أمريكا) و(إسرائيل) أن تقوما بإزالة الحواجز الحضارية والسياسية بين العرب والكيان الصهيوني في فلسطين، وتطبيع العلاقات بين العالم العربي وهذا الكيان، على الصعيد الرسمي على أقل التقادير، لولا (أنور السادات) الذي تبرع للغرب بتذليل هذه المهمة، والسفر إلى فلسطين، واللّقاء بزعماء الكيان الصهيوني في القدس، والوصول إلى تفاهم عربي أمريكي إسرائيلي مشترك في (كمب ديفد).

إنّ دور أنور السادات في هذه المهمة هو تماماً دور العتلة التي تقوم برفع الأثقال الكبيرة بجهد خفيف.

إنّ حكام العالم الثالث[١] يؤدون هذه الخدمة الكبيرة إلى الدول الكبرى بكل رضىً في مقابل بقائهم في الحكم. فإذا استنفذت الدول الكبرى أغراضها من هذه الأنظمة واستنفذت كل إمكاناتها واحترقت أوراق هذه الأنظمة بشكل كامل، استبدلتها بغيرها من خلال مؤامرة عسكرية يخطط لها الغرب، وينفذه قادة عسكريون ابتغاء الوصول إلى المال والسلطان والنفوذ.

وقد واجه علماؤنا هذه المؤامرة الأخيرة، ودخلوا معها في صراع رهيب، وطالت محنتهم وعذابهم بها، وطرد الحكام علماء الإسلام المناهضين لهم في كل رقعة، في إيران والعراق ومصر والجزائر وتركيا وسوريا ولبنان وأفغانستان والهند والسودان وأذاقوهم ألوان العذاب،

---

(١) مصطلح العالم الثالث يصح سياسيا قبل سقوط الاتحاد السوفيتي.

وقتلوا منهم الآلاف وعذّبوا وسجنوا أضعاف ذلك. واستخدموا كل إمكاناتهم في استئصالهم وعزلهم عن ساحة الحياة.

ولكن هذه المحنة لم تتمكن من إخماد صرخة علماء المسلمين في مواجهة الحكّام الظالمين وأجهزتهم القمعية الرهيبة. وعلى عكس ما كان يريده هؤلاء الحكام من عزل العلماء عن الجمهور. كانت هذه الأعمال التعسفية والقمعية تزيد من تعلق الجمهور بالعلماء، بل إنّ قيمة العلماء والفقهاء ومكانتهم الاجتماعية كانت ترتبط وتتناسب عند الناس بمقدار جهادهم للحكام الظالمين، وبالعكس، تهبط على قدر ارتباطهم واتصالهم بهم.

ولو أردنا أن نستعرض شرحاً بأسماء وجهاد علماء الإسلام في تاريخنا السياسي المعاصر لطال الحديث وتطلب الأمر مجلدات من البحث في هذا التاريخ.

* * *

هذه هي خلاصة غير وافية عن المؤامرات الثلاثة في

العالم الإسلامي... وقد نفّذت هذه المؤامرات بشكل دقيق، ووفق أصول علمية مدروسة وبإمكانات ضخمة. ولولا الجهود الكبيرة التي بذلتها جماهير هذه الأمة بقيادة علمائها ضد هذا التيار لكان لهذا التيار شأن آخر في حياتنا السياسية والحضارية والعقائدية اليوم، ولكن الأدوار الكبيرة التي قام بها العلماء والمخلصون من أبناء هذه الأمة أوقفت الزحف المادي من ناحية الغرب والشرق، وصدته وأجبرته على التراجع من كثير من بلاد المسلمين.

٣ ـ الخصائص النفسية والموقع الاجتماعي للعلماء

العالم الديني صاحب اختصاص بالتأكيد. وهذا الاختصاص هو في علوم الشريعة، وله ما لسائر أصحاب الاختصاص من حقوق وآثار ومسؤوليات. إلاّ أنّ هذا الاختصاص يختلف عن غيره من الاختصاصات.

العلم والعمل:

إنّ هذا الاختصاص يتطلب من صاحبه أن يتحوّل فيه العلم إلى سلوك وحركة، بشكل واضح وكامل. ومن غير أن تتحول هذه المعرفة إلى سلوك لا يكون لهذه المعرفة قيمة كبيرة عند الله. فإن العلم إذا رسخ في نفس الإنسان يخلق في نفسه شفّافية ونوراً، ولهذه الشفّافية وهذا النور آثار واسعة في حياة الإنسان.

والعلم يفتح منافذ القلب، ويخرج الإنسان من حالة الانغلاق ويوسّع أفق الإنسان ويمنحه الإحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين، ويحسّس الإنسان بآلام الآخرين وهمومهم،

ويلطّف إحساسه وشعوره، ويمكّنه من تلقي هموم الآخرين ومعاناتهم.

وقد وردت في ذلك نصوص إسلامية، ونحن فيما يلي نشير إلى طائفة من خصائص العلم من خلال النصوص الإسلامية:

العلم والخشية:

يقول تعالى: {**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**}(١).

وهذه الآية تحصر الخشية من الله في العلماء، وبقدر ما يكون العلم تكون الخشية من الله تعالى.

والعلم الذي لا ينتج الخشية من الله تعالى لا يكون من العلم في شيء في المقياس الإلهي.

يقول تعالى: {**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**}(٢).

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) الحج: ٣٩.

وهذه الآية الكريمة تجعل الإيمان والإخبات من لوازم العلم.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الخشية ميراث العلم، ومن حرم الخشية لا يكون عالما وان شق الشَّعر في متشابهات العلم»[١].

فالعلم الحق هو الذي يورث صاحبه الخشية، وأما ما لا يورث صاحبه الخشية فليس من العلم، وإن شق صاحبه الشعر في دقة النظر.

وفي القرآن نجد حصرين اثنين:

حصر الخوف من الله تعالى والإخبات له في العلماء، فلا يخشى الله تعالى حق خشيته أحد غير العلماء، وكل يخشى الله تعالى على قدر علمه، واختلاف الناس في الخشية من الله ينشأ من اختلاف درجاتهم في العلم، كما إنّ اختلاف درجات الناس في الإخبات ينشأ من اختلافهم

---

(١) بحار الأنوار ٢: ٥٢.

في درجات العلم.

وهذا أحد الحصرين في القرآن.

والحصر الآخر في القرآن هو حصر خوف العلماء من الله تعالى فقط، فإن العالم هو الذي يخشى الله تعالى فقط ولا يخشى أحداً إلا الله. يقول تعالى: {**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**}[1].

وبموجب هذا الحصر لا يخشى العالم أحداً إلا الله تعالى.

والآية الكريمة وان كانت لا تضيف الخشية إلى العلماء ولكنها تضيفها إلى الذين يبلغون رسالات الله، ولا يبلغ رسالات الله إلا العلماء بالضرورة.

فللعلم إذن خاصية غريبة: إنّه يبعث الخشية من الله تعالى في نفس صاحبه، وينفي الخوف من غير الله من

---

(١) الأحزاب: ٣٩.

نفس صاحبه في نفس الوقت.

والثاني يتبع الأول، والأول ينبعث من العلم. فلا يتحرر الإنسان من الخوف من غير الله إلا إذا تأكد الخوف من الله تعالى في نفسه، ولا يتأكد الخوف من الله تعالى إلا إذا رسخ العلم في نفسه، وبقدر ما يرسخ العلم في نفس الإنسان يكون الإنسان خائفاً من الله تعالى.

ونحن نستظهر هذه المعادلات كلها من بيان القرآن وتقريره.

وهذا أحد اغرب آثار العلم في نفس العالم.

والعلم هنا أمر آخر غير ما يخزن الإنسان في ذاكرته من المعلومات، وإنما هو ما يستقر في نفس الإنسان، ويرسخ ويتحول في نفس الإنسان إلى وعي وبصيرة وهدى وسلوك.

وهذه هي الخصوصية الأولى للعلم في النصوص الإسلامية.

العلم والمسؤولية:

والخصوصية الثانية للعلم هي: إنّ العلم يحمّل صاحبه مسؤولية أعمال الآخرين.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الشقشقية: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما اخذ الله على العلماء ألا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها»(١).

فإن العلم كما ذكرنا يوسّع أفق وعي الإنسان وشعوره، ويخرجه من حالة الأنا، ويمكّنه من أن يتحسس هموم الآخرين ومعاناتهم.

فإذا أحسّ الإنسان بمعاناة الآخرين وهمومهم يحمل مسؤوليتهم، ويقف إلى جنبهم، ويدافع عنهم، ويرفع

---

(١) نهج البلاغة: ص ٥٠ خطبة ٣.

صرخة المظلوم في وجه الظالم، وهذا هو عهد الله على العالم، كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم.

وهذا عهد أخذه الله على كل إنسان، وكل منا أعطاه الله تعالى هذا الوعي في عمق فطرته وتكوينه، ولكن العلماء من دون سائر الناس يمكّنهم الله تعالى من وعي هذا العهد والإحساس به أكثر من غيرهم ويطالبهم به أكثر من غيرهم، وهذا من خصائص العلم والمعرفة.

العلم والمعرفة:

والعلم الذي يمنح الإنسان هذه المؤهلات وهذه الشفافية والخفة في الروح، هو ما يصطلح عليه اليوم (بالثقافة).

فإن المعرفة البشرية (ثقافة) و(علم).

والثقافة هي مجموعة المعارف التي تدخل في تكوين ذهنية الإنسان، وعقله، وروحه، وعواطفه، وسلوكه، وعقيدته مثل (العقيدة) و(الفلسفة) و(الأخلاق) و(الآداب)

و(التاريخ) و(علوم الشريعة) والعلم ماعدا ذلك من تجارب الإنسان وخبراته ومعارفه، كالصيدلة، والطب، والجراحة، والرياضيات، والفلك، والجيولوجيا، والجغرافيا.

والثقافة توجّه العلم. فإن العلم لا جهة له من الخير والشر في حياة الإنسان ويقبل الخير والشر معا، والثقافة هي التي توجّه العلم إلى الخير والشر، وتحدد وجهة الإنسان في الحياة.

فإذا كانت الثقافة التي تكوّن ذهن الإنسان ونفسه ثقافة ربانية استطاع صاحبها أن يوظف العلم باتجاه خدمة الإنسان وصلاحه.

وإذا كانت الثقافة التي توجه الإنسان ثقافة مادية جاهلية وجّهت صاحبها إلى توظيف العلم باتجاه تخريب أخلاق الإنسان وسلوكه، وباتجاه العدوان، والإفساد في الحرث والنسل.

والثقافة مصطلح حديث في هذا المعنى، إلا أن التمييز بين (العلم) و(الثقافة) ليس حديثاً.

فقد كان العلماء قديماً يفرّقون بين مصطلح (العلم) و(المعرفة)وكان يقصدون بالمعرفة مضموناً قريباً إلى مضمون (الثقافة) اليوم.

ومهما يكن من الأمر فإننا نقصد بالعلم هنا (الثقافة) و(المعرفة) وبهذا المعنى يكون العلم موجّها للإنسان وهاديا له، ويمنح الإنسان النور والشفافية وسعة الأفق والبصيرة والهدى.

وبهذا المعنى يكون العلم رحمة في حياة الإنسان.

يقول تعالى في قصة لقاء موسى بن عمران عليه السلام بالعبد العالم عند مجمع البحرين: {**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**}(١).

والعلم في هذه الآية المباركة وان كان معطوفاً على الرحمة، إلاّ إنّ السياق يشهد بأن المقصود من الرحمة ما يشمل العلم، فإن الله تعالى إنما وجّه عبده وكليمه موسى

---

(١) الكهف: ٦٥.

بن عمران عليه السلام إلى لقاء عبده العالم ليأخذ مما أتاه الله تعالى من العلم.

فالعلم رحمة في حياة الإنسان، ولن يكون العلم رحمة إلا حينما يوجّه الإنسان إلى الله تعالى، ويمنحه بصيرة وهدى وشفافية في النفس، ويرقّق مشاعره، ويوسّع آفاق نفسه وعقله...

وهذا هو معنى الثقافة والمعرفة.

المسؤولية التخصصية للعالم:

الإسلام لا يعتبر العلماء طبقة اجتماعية متميزة، ذات حقوق خاصة ومتميزة، ولكن العلم يحمّل الإنسان مسؤولية متميزة وهي إصلاح المجتمع ودعوة الناس إلى الله تعالى.

وهذه المسؤولية نابعة من وعي العالم بعهده الذي أعطاه لله تعالى... وهذا العهد يتضمن دعوة الناس إلى الله تعالى وإصلاحهم وتوجيههم.

وكلما استقر العلم في نفس الإنسان أكثر تأكد هذا العهد أكثر.

وعلى هذا الأساس يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية تخصصية للعلماء دون سائر الناس، ويجب على المسلمين إعداد العلماء للقيام بهذه المسؤولية.

الأمر بالمعروف في الدائرة العامة والخاصة:

والذي يمعن النظر في القرآن الكريم يجد أن القرآن الكريم يطرح هذا الواجب الخطير على صعيدين:

على الصعيد العام بالنسبة إلى كل المسلمين، وعلى الصعيد الخاص بالنسبة للعلماء. يقول تعالى: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}**(١).

وهذه هي الدائرة العامة لهذه الفريضة الإسلامية،

---

(١) التوبة: ٧١.

وبموجب هذه الآية يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل المؤمنين والمؤمنات.

وفي الدائرة الخاصة يقول تعالى: {**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**}(١).

وهذه الآية الكريمة واضحة في الدعوة إلى قيام طائفة من المؤمنين بصورة اختصاصية بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشاهد على ذلك كلمة (منكم) الدالة على التبعيض.

كما إنّ القرآن يوجب الإعداد العلمي لهذه الطائفة من الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

يقول تعالى: {**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ**

---

(١) آل عمران:١٠٤.

قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}[1].

وهذه الآية الكريمة تدعوا المؤمنين إلى أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، وليقوموا بمسؤولية الإنذار والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا رجعوا إلى قومهم لعلهم يحذرون.

فليس من الممكن أن يتفقه الناس جميعاً، ولا يمكن أن يستقيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (في هذه الدائرة المركّزة) من دون أن يتفقه الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. ولهذا وذاك يوجب القرآن الكريم على المؤمنين أن يتفقّه من كل فرقة منهم طائفة لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ويبدو من هذه الآية الكريمة إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدائرة الخاصة يختلف شأنه عنه في الدائرة العامة.

---

(١) التوبة: ١٢٢.

فهو يتطلب من الفقه ما لا يتطلبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدائرة العامة.

ويتطلب من التفرغ والتخصص ما لا يتطلبه الأمر بالمعروف في الدائرة العامة.

ويتطلب من القوة والسلطان والصلاحيات ما لا يتطلبه الأمر بالمعروف في الدائرة العامة.

الفهرس